ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

الصحراء الجزائرية
خلال العهد العثماني

أ.د. حنيفي هلايلي

أستاذ التعليم العالي ومدير مختبر البحوث
والدراسات الاستشرافية في حضارة المغرب
جامعة جيلالي ليابس – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

يحاول هذا المقال التركيز على مسالة الصحراء الجزائرية في العهد العثماني، وتبيان عزوف السلطة العثمانية في التوسع بصحراء الجزائر وعدم إعطائها الأولوية يفسر الأخطار الخارجية المستمرة، والمتمثلة في التواجد الإسباني، والحملات الأوروبية البحرية المتكررة على سواحل الجزائر. وعلى الرغم من هذا القصور لم يتوانى العثمانيون من عقد تحالفات استراتيجية مع سكان الواحات لضمان ولائهم للسلطة المركزية والاعتماد على نفوذ الزوايا في الصحراء الجزائرية مما يضمن لهم التبعية والاعتراف بالسلطة العثمانية. كانت الجزائر عرضة للأخطار الأجنبية، وهذا بسبب فعالية موقعها الجغرافي الاستراتيجي الذي يتحكم في معظم المسالك الملاحية للحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، وهذا انطلاقًا من محور مالطة إلى مضيق جبل طارق. ظلت المناطق الجبلية والصحراوية بعيدة عن السيطرة التركية، لهذا جند لها الأتراك العثمانيون كل إمكانياتهم المادية والعسكرية إخماد تمرد قبائلها وإرجاعها إلى السلطة. إلا أن طبيعة المنطقة حالت دون تحقيق هذا الهدف، ومرد ذلك أن حكام الإيالة لم يكلفوا أنفسهم في مبادرة إقرار التنظيمات وسن القوانين وتنصيب الحكام وإبقاء الحاميات بكل مناطق الجنوب أو الجبلية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٣ سبتمبر ٢٠١٩
تاريخ قبـول النشـر: ١٠ نوفمبر ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

الصحراء؛ الجزائر؛ العهد العثماني؛ الثورات؛ المستكشفون؛ فرنسا

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0057046

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

حنيفي هلايلي. "الصحراء الجزائرية خلال العهد العثماني".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد السادس والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٩. ص٩٤ – ١٠٥.

مُقدِّمَةُ

إن مراقبة أيالة الجزائر للصحراء قبيل الاحتلال الفرنسي سنة ١٨٣٠ تعد من المؤشرات المهمشة في سياستها التوسعية المتوسطية مقارنة في مجابهتها لإسبانيا والأخطار الأجنبية بوجه عام، إذ كانت النظرة العسكرية متجهة أساسا نحو الشمال والغرب. ويعزى هذا التراجع وعدم الاهتمام بالصحراء إلى قلة الإمكانيات المادية وضعف القدرات العسكرية، وشساعة المناطق الجنوبية والتلية. والراجح أن عزوف السلطة العثمانية في التوسع بصحراء الجزائر وعدم إعطائها الأولوية يفسر الأخطار الخارجية المستمرة، والمتمثلة في التواجد الإسباني الذي يحتل وهران (١٥٠٩) والمرسى الكبير منذ ١٥٠٥، والتحرشات العسكرية المغربية المتكررة على الجزائر خاصةً بسبب قضايا الحدود.[1] ومع هذا لم يتوانى العثمانيون من عقد تحالفات استراتيجية مع سكان الواحات لضمان ولائهم للسلطة المركزية والاعتماد على نفوذ الزوايا

في الصحراء الجزائرية مما يضمن لهم التبعية والاعتراف بالسلطة العثمانية. لقد كانت الجزائر عرضة للأخطار الأجنبية، وهذا بسبب فعالية موقعها الجغرافي الاستراتيجي الذي يتحكم في معظم المسالك الملاحية للحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، وهذا انطلاقا من محور مالطة إلى مضيق جبل طارق.

ظلت المناطق الجبلية والصحراوية بعيدة عن السيطرة التركية، لهذا جند لها الأتراك العثمانيون كل إمكانياتهم المادية والعسكرية إخماد تمرد قبائلها وإرجاعها إلى السلطة. إلا أن طبيعة المنطقة حالت دون تحقيق هذا الهدف، ومرد ذلك أن حكام الإيالة لم يكلفوا أنفسهم في مبادرة إقرار التنظيمات وسن القوانين وتنصيب الحكام وإبقاء الحاميات بكل مناطق الجنوب أو الجبلية، باستثناء بسكرة التي ظلت كما هو معلوم ترابط بها حامية تركية مؤلفة من 64 رجلاً[2]. وقد ترتب عن هذه السياسة أن أصبح كل من الإطار الزماني والمكاني للوجود العثماني في هذه المناطق غير قار ولا محدد كما كانت النوبات بمثابة بوبات محدودة لمراقبة أعماق الصحراء الجزائرية.

يعلق "شالر" عن هذه القبائل التي كانت تعيش على تخوم الصحراء بأنهم: "كانوا يحملون في قلوبهم شعورًا قويًا إلى الاستقلال، لا يمكن قهره بحال من الأحوال، وتاريخ الجزائر لا يشير إلى أن الحكومة المركزية قد تمكنت من إخضاع قبيلة واحدة إخضاعًا تامًا بقوة السلاح..."[3]

وقد لفت هذا الموقع انتباه الأوروبيين منذ بداية العصر الحديث، لهذا كان لزامًا على حكومة الجزائر حماية السواحل من الغزو الأجنبي المنظم في شكل حملات عسكرية قادها الأباطرة والملوك والأمراء والرهبان والقراصنة[4]. وفي هذا السياق واجهت الجزائر هذه الحملات الصليبية الشرسة ببناء قوة عسكرية رادعة كأداة لفرض هيمنتها، تمثلت في الأسطول البحري الهام الذي مكنها من القيام بدور مشرف في مسرح الأحداث العالمية.

الصحراء الجزائرية خلال العهد العثماني[*]

تشهد كتب المستكشفين الفرنسيين من رجال الدين والتجار والعسكريين الذين قاموا برحلات متعددة إلى الصحراء الجزائرية منذ بداية الاحتلال-وذلك من خلال محاولاتهم التبريرية تقديم الحجج الباطلة-على أن الصحراء لم تكن خاضعة للنفوذ الجزائري خلال الفترة العثمانية، وتستند ادعاءاتهم فيما بعد بأن جغرافية الصحراء الجزائرية هي من صنع الاستعمار الفرنسي. من هنا جاءت هذه الدراسة لتفند هذه الادعاءات الاستعمارية ومن يروج لها. كان التنظيم الإداري العثماني يرتكز في البلاد المفتوحة على قبولها وجود ممثل السلطان أو نائبه (الباشا) وحامية تركية محدودة العدد مهمتها جمع الضرائب وحماية الأقاليم واستتباب الأمن[5]. ولتأمين طرق المواصلات بين البايليك ودار السلطان أنشأ العثمانيون بالجزائر تحصينات في كل المدن الساحلية والداخلية وعلى الطرق السلطانية ومداخل المدن الصحراوية.

تُعَدّ مدينة المدية عاصمة بايليك التيطري في العهد العثماني، وهي منطقة تقع جنوب غرب مدينة الجزائر، وكان يحيط بها سور من الحجارة الصلبة ولها خمسة أبواب، اثنان منها محروسان بطبخاتان تضم كل واحدة أربعة مدافع[6] كانت التحصينات الدفاعية للمدينة مزودة بمدافع ميدانية، يستخدمها جيش البايليك أثناء حملاته ضد القبائل المتمردة، وكانت حاميته تتكون من خمسين جنديًا (صبايحيا) وخمسة مكاحليا، كحرس خاص للباي، بالإضافة إلى خمس صفرات من (120) جندي إنكشاري موزعة في أراضي البايليك ومقسمة على أربع قيادات[4].

١. قيادة التل الصحراوية
٢. قيادة التل القبلية.
٣. قيادة سور الغزلان.
٤. قيادة الجنوب وأولاد مختار.

ومن أهم المراكز العسكرية الاستراتيجية في أراضي البايليك فهي:

١. برج سور الغزلان الذي بني على أنقاض مدينة رومانية (AUZIA) سنة 1594م، وكانت حاميته تضم ثلاثين جنديا وستين احتياطيا وعدد من المدافع[7].
٢. برج السواري الذي أقيم على الحدود الجنوبية لحماية أراضي البايليك من هجمات القبائل الرحل.[8]

لم تكن سلطة العثمانيين تشمل كل البلاد الجزائرية، فهناك قبائل قوية أو اتحاد قبائل على رأسها أسر متنفذة بقيت تحتفظ بقدر كبير من الاستقلال الذاتي. كما كانت هناك اتحادات قبلية على أساس ديني. وبصورة عامة لم تكن السلطة العثمانية الفعلية في

الجزائر حسب الكتابات الفرنسية تشمل سوى ١/٦ الجزائر، واصطنع الأتراك بعض القبائل عرفت باسم قبائل المخزن، أعفوها من الضرائب وأطلقوا يدها في اضطهاد قبائل الرعية. كما أقاموا على طرق المواصلات محميات عسكرية، وأحاطوا الجبال بحزام من المراكز العسكرية. ومن حسن حظ الأتراك أن مناطق الجنوب لا تستطيع العيش في اقتصاد مغلق[9]. إن التواجد العثماني بالصحراء الجزائرية تؤكده النوبات والمحلات العسكرية المرابطة في منطقة بسكرة[10] وجنوب تبسة وبايليك قسنطينة وجنوب بايليك التيطري بسور الغزلان والمدية، وجنوب بايليك الغرب. وقد ارتبط نظام القبائل المخزية في السياسية العثمانية بالمناطق التلية، فنجد ما بين معسكر ووهران كل من الزمالة والدوائر وبين برواقية وبوغار بالدوائر والعبيد وفي جنوب قسنطينة الزمول. إن قبائل المخزن من حيث نشأتها وتطورها وصلاحياتها كانت تعبيرا صادقا وتطبيقا لسياسة الحكام الأتراك مع غالبية الجزائريين، وهذه السياسة هي التي أفرزت قبائل المخزن في شكل مجموعات سكانية تعميرية لها صبغة فلاحية وعسكرية وإدارية.[11] ولكن مع القبائل الساكنة بالصحراء، وهذا من خلال شبكة التوسع في المجال الصحراوي وهوما يفسر العديد من الحملات العسكرية.[12]

لهذا كان لا بد لقبائل الجنوب من ارتياد الأسواق التي كان العثمانيون يخضعونها لإشراف دقيق ويستغلون الأوضاع للضغط على هذه القبائل أو إجبارها على دفع الضرائب. ومنذ مطلع القرن الثامن عشر بدأت موارد الغنائم البحرية (القرصنة) تتضاءل بسبب انحطاط البحرية الجزائرية. مما دفع بإيالة الجزائر إلى زيارة الاعتماد على الموارد الضرائبية، فأخذت قبضة البايات تشتد في الداخل والجنوب وهذا في منتصف القرن الثامن عشر، وسعوا إلى إخضاع المزيد من القبائل، وسرعان ما تحول المرابطون إلى متزعمين للثورات التي بدأت بصورة خطيرة منذ بداية القرن التاسع عشر في شمال قسنطينة وغربي بايليك دار السلطان، وفي جميع أنحاء بايليك الغرب[13].

ومن أهم تحصينات الجنوب، تحصينات مدينة بسكرة وهي عاصمة الزاب، وإحدى القواعد العسكرية العثمانية على حدود الإقليم الجديد. كانت المدينة محصنة ببرجين مسلحين بثمانية عشر مدفعا حسب معلومات القائد إبراهيم[14] في حين يشير شاو أن المدينة لا يوجد بها سوى برج واحد مسلح بستة مدافع وبعض المكاحل الموضوعة على العجلات بالإضافة إلى بعض القطع المدفعية الخاصة بالميدان، كانت تستعمل للقضاء على تمردات القبائل أثناء حملات تأدية الضرائب[15].

ظلت ورقلة ومنطقتها تشكل المحور الأساسي لأحداث الجنوب الجزائري، ومركز الثقل للتطورات التي عرفتها الجهات الشرقية من الصحراء الجزائرية. فطيلة الفترة العثمانية كانت تشكل محورًا ومركزا رئيسيا لتجارة السودان ومحطة قارة لطريق الحج، ومنطلقًا سهلاً للتوغل في أعماق الصحراء. على أن الشيء الجدير بالذكر أن الوثائق تثبت قلة الحملات العسكرية نحو الجنوب وهذا قبيل القرن الثامن عشر باستثناء تعرض منطقتي ورقلة وتوقرت للحملة التي شنها صالح رايس (١٠٠٢-١٠٠٦) بيلارباي الجزائر في شهر أكتوبر 1552 م على رأس جيش مجهز بمدفعين لفك الحصار ومكون من 3000 من المشاة و1000 من الفرسان. وقد تمكن من أخذ 200 ألف ريال من أهالي المنطقة[16] وقد رافقه في هذه الحملة عبد العزيز أمير بني عباس. كان الهدف من هذه الحملة هو استعادة السيطرة على الطريق التجاري الذي تتحكم فيه ورقلة بين بلاد السودان الغربي وجنوب الصحراء.

والبلدان الواقة شمالها، يضاف إلى ذلك اخضاع الزعمات المحلية بالمنطقة لنفوذه. أما لويس مارمول كربخال (Marmol Carvajal)[17] فأشار أن صالح رايس عاد من توقرت وورقلة بخمسة عشر جملاً محملاً بالذهب. أما الحملة الثانية فقام بها يوسف باشا (1647-1650م) عام 1649م، حيث طالب الأهالي بدفع الضريبة للمساهمة في خزينة الجزائر. حيث أكدت على انضمام المنطقة إلى الحكم المركزي بالجزائر، وهذا ما جاء ذكرها في دفتر التشريفات مسجلة بتاريخ 1790م في مساهمة المنطقة بخمس وأربعين فردا، وتوقرت بـ 16عبدًا، وتماسين بـ عبدًا ٢٠.[18]

كان للنفوذ العثماني بمنطقة ورقلة جانبان أحدهما سلبي يقوم على استعمال القوة وشن الحملات وفرض الضرائب والتحكم في المراعي، والآخر إيجابي يعتمد على المبادلات التجارية ومراقبة الهجرة المؤقتة للبدو الرحل. وذلك بفعل الأسواق ومراعي الهضاب والتل وطرق الصحراء ومراكزها. ويعطي لنا النفوذ العثماني بمنطقة ورقلة فكرة صحيحة عن مدى ارتباط الجزائر بإفريقيا السوداء، ويثبت تكامل

إقليمي الصحراء والتل. هذا التكامل الذي يعطي للإيالة الجزائرية منذ القرن السادس عشر وحدة طبيعية[19]. ومن خلال دفتر التشريفات فإنه في سنة 1829م كانت نوبة بسكرة تتكون من السفرات وعدد متواضع من الجنود والجدول التالي يوضح لنا ذلك[20]:

نوبة بسكرة	4 سفرات	15-16-16-15	62 جنديًا

يعود سبب هذا الإخفاق والتراجع في المغامرة الصحراوية من طرف قوات أيالة الجزائر إلى الحملات العنيفة والمتكررة في الحوض الغربي للمتوسط التي كانت تجابهها عاصمة الجزائر باستمرار والهجومات المتكررة من جهة المغرب، مما كان له أثره في إهدار الطاقات المادية والعسكرية.[21] والظاهر أن التوسع العسكري للأتراك العثمانيين بالصحراء الجزائرية لم يعرف الاهتمام إلا مع القرن الثامن عشر بسبب ضعف الأسطول الجزائري وضآلة الموارد وتراجع الغنائم، بدأ التفكير في موارد قارة وهي الضرائب. وهو ما يفسر العديد من الحملات العسكرية من أجل توسيع شبكة المواصلات في المجال الصحراوي، وهذا بفضل تسخير الطاقات المادية والبشرية.[22]

في السياق نفسه نسجل على جهة بايليك الغرب أكبر حملة عسكرية قادها باي معسكر محمد بن عثمان، الباي محمد الكبير(١٧٧٩-١٧٩٧م)، على الشلالة وأفلو والأغواط وعين ماضي سنة ١٧٨٥ لفرض الضرائب. وقد قام الباي بعديد الحملات في الجنوب الغربي لتأديب أتباع الطريقة الدرقاوية وشملت الحملات إطارًا زمنيًا طويلاً امتد ما بين ١٨٠٥ إلى غاية ١٨٢٦. وقد كانت الدرقاوية أقوى الطرق في الجزائر، وكان مركز الدرقاوية الرئيس في الونشريس وجنوب التيطري، ولها أتباع في غربي الجزائر، وعلاقات وطيدة بسلاطين المغرب وكان شيخ الطريقة يقيم في فاس وقد أبدى الدرقاويون مقاومة عنيفة للأتراك حتى صار تعبير "عاصي" يوازي تعبير درقاوي. وقد تزامن انتشار هذه الطريقة مع تفاقم الوضع السياسي والاقتصادي لحكومة الدايات. ففي بداية القرن التاسع عشر أشعلت الدرقاوية ثورة خطيرة في منطقتي قسنطينة ووهران، فغطت مساحتها المنطقة الغربية من الشلف حتى الحدود المغربية بالإضافة إلى أغلب الجهات الشرقية من الإيالة. كما تعد الثورة الدرقاوية من أخطر الثورات التي عجلت بسقوط الجزائر العثمانية وضعف قدراتها الحربية في مواجهة الاحتلال الفرنسي سنة 1830م وتنتسب الطريقة إلى الشيخ مولاي العربي الدرقاوي (١٧٣٧-١٨٢٣م).[23]

قام أتباع الدرقاوية بثورة في بايليك وهران، بسبب تشدد باي وهران معهم وقتله عدد منهم. وقد تزعم الثورة مقدم الدرقاوية محمد بن عبد القادر بن الشريف الفليتي[24]. لقد لقي ابن الشريف التأييد الواسع من القبائل الجزائرية التي كانت تناصره وتقدم له الهدايا والعطايا[25]، كما كانت تشكوا إليه ما يصيبها من إرهاق بسبب ما يفرضه البايات من مغارم وضرائب. ويبدوا أن فكرة إعلان الثورة على الأتراك بدأ بأول لقاء ابن الشريف مع شيخه مولاي العربي الدرقاوي. وقد استغرقت عمليات الاستعداد للثورة، مدة خمس سنوات (1800-1805م) ولعل فتيل إشعال الثورة بين ابن الشريف والأتراك هو استغلاله، الهزيمة العسكرية التي منيت بها قبائل المخزن أمام قبائل الأنجاذ[26].

استغل ابن الشريف هذه الهزيمة، ليغطي الاذن لأتباعه بنهب ممتلكات هذه القبائل فلما سمع باي وهران مصطفى العجمي (١٨٠١-١٨٠٥) بالخبر، عسكر بجيشه على ضفاف وادي ميناء[27]. والتقى الطرفان بقرية فرطاسة[28] سنة 1805م حيث جرت معركة، انهزم فيها الجيش الإنكشاري: "فأمسى الباي ومخزنه في .....وأصبح الدرقاوي وأتباعه في رغد..."[29].

تمكن ابن الشريف من الدخول إلى مدينة معسكر، فجعلها قاعدة لجيشه، وراح يوجه النداءات إلى كل القبائل لتعلن الحرب والجهاد ضد الأتراك وحلفائهم من قبائل المخزن: "أنا نزعت عنكم ما كنتم به من أداء الجزية التي هي حرام على المسلم وقطعنا دابر الترك وأتباعهم فالواجب مبايعتنا والجهاد معنا"[30]. ووجد نداء الشريف استجابة كبرى حيث انضمت إليه فلول قبائل الغرب والوسط الجزائري بل تعدتها إلى القبائل المخزنية مثل قبيلة الحشم والغرابة والزمالة والدوابر[31]. تمكن الثوار من السيطرة على القبائل من حدود مليانة إلى وجدة، مما أدى بالحاميات التركية إلى الانسحاب، والتمركز في المدن الساحلية كما سارع ابن الشريف إلى ضرب الحصار على وهران، وحاول باشا الجزائر نجدة المدينة المحاصرة، لكن القبائل الثائرة اعترضت طريق الجيش العثماني للوصول إلى وهران[32].

وأمام هذه الوضعية الصعبة، طلب الباي تدخل السلطان المغربي سليمان(١٧٩٧-١٨٢٢م) لدى شيخ الطريقة مولاي العربي الدرقاوي المقيم في فاس ليقوم بتهدئة أتباعه[33]، ولكن شيخ الدرقاوية بعد أن زار تلمسان وسمع شكاوى أتباعه أيد موقفهم، ويبدو أنه دعاهم إلى مبايعة سلطان المغرب واعتمادا على الرسائل المتبادلة بين شيخ الطريقة والسلطان سليمان، سنة ١٨٠٥م، نستنتج أن السلطان لم يرفض البيعة وكانت بثقته القيام بتدخل عسكري في المنطقة الغربية من الإيالة ولكن الظروف الطبيعية حالت دون تحقيق هذا الهدف التوسعي.

كان فشل ابن الشريف في اقتحام مدينة وهران التي حاصرها مدة ثمانية أشهر السبب في عدول سلطان المغرب عن الدخول في حرب مع الأتراك، فآثر التخلي عن مشروعه. وقد قام داي الجزائر بتعيين الباي محمد المقلش الذي رافقته قوة من الإنكشارية قدرت بـ ١١٠٠جندي، واتخذت سبيل البحر لدخول المدينة المحاصرة[34]. وعمد الباي "محمد المقلش" إلى الوسائل الديبلوماسية واستعمال الدهاء السياسي لاتقاء شر الدولة العلوية، واستعمال أنواع القمع والإرهاب ضد الثوار[35]. ومع حكم الباي المقلش (١٨٠٥-١٨٠٧م) تراجعت مواقع القوة لصالح الأتراك، حيث انتصر جيش الباي على الثوار في موقعه أولاد زائر[36] ومعركة السدرة التي رجحت كفة النصر لصالح الجيش العثماني[37].

استطاع الباي المقلش ما بين (١٨٠٥-١٨٠٨م) من إخضاع قبائل مهاجر والبرجية وبني عامر المتحالفة مع ابن الشريف[38]. واستطاعت هذه الطريقة أن تؤثر على رموز النظام العثماني وكان من بينهم الباي محمد بن عثمان الملقب ببوكابوس، أو المسلوخ (١٨٠٨-١٨١٣م)، الذي تولى حكم بايليك الغرب بعد محمد المقلش، فقد انتمى سريا إلى الطريقة الدرقاوية، وأعلن تحالفه مع السلطان المغربي، مولاي سليمان وحسب الوثائق الإسبانية، فإن الباي بوكابوس قد طلب من إسبانيا وإنجلترا عام ١٨١٣م[39]. تزويده بالبارود، بغرض مراقبة السواحل لمنع الأسطول الجزائري القادم من العاصمة إذا حاول دخول ميناء وهران، وقد وعد الباي كلا من إسبانيا وإنجلترا بامتيازات وإغراءات اقتصادية في حالة تقديم يد العون لإنجاح تمرده على السلطة[40].

لم تتمكن إسبانيا من الالتزام بوعودها للباي بسبب الاتفاقيات المبرمة مع الجزائر في نهاية القرن الثامن عشر، في حين أن المغرب كانت إمكاناته العسكرية محدودة، ولم يرد الدخول في مواجهة عسكرية ضد الأتراك وبعد فشل ثورة بوكابوس، أعطيت الأوامر للباي الجديد يسلم رأس بوكابوس حيا وحشو جلدة رأسه قطنا وإرساله إلى مدينة الجزائر لتعليق جثته على أبواب المدينة وقتل أولاده وهم صبيان[41].

هل من المصادفة أن تكون ثورة الدرقاوية مشروع سياسي قام به سلاطين المغرب؟ – الأعداء التقليديون للجزائر العثمانية-وهذا بواسطة أعوانهم وأتباعهم للتوغل في أراضي الجزائر، بعد أن فشلوا في المواجهة العسكرية؟ لكي نفهم حقيقة هذه الثورة وانعكاساتها على أيّالة الجزائر، يجب ألا نقنع بما هو متوفّر من حقائق. بل لابد أن ندرك بكيفية ما، وعبر تفسيرات أخرى واعتماداً على الشواهد والوثائق أن ثورات القرن التاسع عشر كانت تعبيرا هادفا عن السخط الشعبي على الأوضاع السياسية والاقتصادية التي كانت سائدة في الجزائر أواخر العهد التركي، بالرغم من أن شعارات الثورة كانت دينية ومتسترة وراء مطالب قبلية. وقد شكلت الدرقاوية الطريقة الأكثر انتشارًا وتوسعا ونفوذا، حيث كانت وراء ثورات عديدة، وإذا كانت الطريقة القادرية[42] تأخذ الاتجاه الارستقراطي فإن الدرقاوية تأخذ الاتجاه الشعبي حيث أن المنضمين إليها كانوا غالبًا ينتمون إلى قبائل الرعية.

كانت هذه الطريقة تسعى للوقوف في وجه السلطة العثمانية، وكانت تدفع للتمرد على السلطة الحاكمة، وكان مجال انتشارها الجغرافي يمتد في بايليك الغرب والمنطقة الوسطى من الجزائر. وقد استغلت الطريقة الدرقاوية تمرد بعض القبائل على الحكم من أجل التحالف معها. ونلاحظ أنه في نهاية القرن الثامن عشر كانت قبيلة بني عامر تستقبل عددًا من العائلات الدينية، حيث وجدت هذه الأخيرة أرضية خصبة لدعوتها، كما وجدنا قبيلة بني عامر في انتسابها للطريقة الدرقاوية وسيلة للوقوف في وجه السلطة. وبالرغم عن كونها طريقة دينية إلا أنها بدأت تأخذ منحى العمل التحريضي من أجل التمرد على السلطة والعصيان لإضعاف الحكم[43].

لقد تنامت قوة التجانيين في مناطق الجنوب وكان مركزها الرئيس في "عين ماضي"، وقد ثاروا بعد انتهاء ثورة الدرقاوية بزعامة محمد الكبير الابن الأكبر للشيخ

أحمد التيجاني[٨١]. وكان للطريقة أتباع كثيرون في الصحراء والهضاب، وكانت مراكزهم وزواياهم تشكل خيطًا من مدينة فاس إلى تلمسان حتى الأراضي التونسية مرورًا بالواحات والقصور[44]. وبسبب الدور الاقتصادي المتميز الذي لعبه التيجانيون، وفي تحكمهم في مداخيل التجارة مع إفريقيا السوداء، تقرب إليهم المغاربة والتوانسة والمشيخات الصحراوية وحاولت التقرب منهم وكسب ثقة شيوخهم[45].

تعرض الشيخ أحمد التيجاني (١٧٣٧-١٨١٥م) إلى ضغوطات باي وهران محمد بن عثمان، فنعزل عن المدن، ولما بلغه تهديد الباي له، أسرع بالفرار إلى فاس، مستأذنا السلطان المغربي مولاي سليمان الذي أكرم ضيافته وحاول استعماله كأداة ضغط ضد الأتراك وقام الباي محمد الكبير بحملة عسكرية بالجنوب الصحراوي وأغار على قرية عين ماضي والأغواط معاقل الطريقة التيجانية سنة ١٧٨٧م وأرغم شيوخها على الخضوع إلى سلطة البايليك[46]. كما فشل باي التيطري مصطفى بومرزاق (١٨٠٩-١٨٣٠م) في الاستيلاء على مقر التيجانية في عين ماضي سنة ١٨٢٢م[47].

وفي سنة ١٨٢٥م حاصرت قوات الباي مصطفى بومرزاق قرية عين ماضي لمدة شهر وانتهى الحصار بإبرام الصلح بين الطرفين تم بموجبه تقديم ٢٠٠٠ ريال بوجو، وغرامة سنوية مقدارها ٥٠٠ ريال بوجو[48].حاول محمد التيجاني استمالت القبائل في المناطق الغربية مثل "بني عامر"، "بني شقران"، "البرجية"، "الغرابة"، "الزمانة" و"الدوايرة"، لكنها امتنعت عن المبايعة، والذي شجع التيجانية هو قبائل "بني هاشم" التي شجعته في إعلان الثورة على الأتراك، وزحف جيشه المقدر بـ ٦٠٠ مقاتل نحو معسكر سنة ١٨٢٧م، ودارت معركة بين التيجاني والجيش العثماني بأرض "أولاد دوحر بمعسكر" [49].

فشل التيجانيون في الاستيلاء على معسكر، ويصف لنا الزهار النهاية المأساوية التي تعرض لها أنصار التيجانية على يد الأتراك: "...فقطعوا رؤوسهم – أي الأتراك-وفرقوها على المدن لكي يعتبر الناس وبعثوا برأس الحاج محمد... ومعه بعض الرؤوس الأخرى للجزائر وآتوا بسفينة وبعض الحاجات التي كانت عليه... وجعلوا رأس ولد التيجاني في عمود وصلبوه قبالة (أمام) الباب الجديد وعلقوا الرؤوس الأخرى حولهن ولكثرة ما كان الأتراك يخافونه بعثوا للسلطان محمود الثاني يبشرونه بقتله..."[50] ولعل الفشل الذي منيت به الطريقة التيجانية في أول معركة لها مع القوات العثمانية، يرجع إلى عدم التجاوب الشعبي مع الطريقة بمثل ما حظيت بع الطريقة الدرقاوية، بالإضافة إلى السياسة الانتقامية التركية المبنية أساسًا على الإرهاب والتسلط ضد القبائل المتعاونة مع الثور، وبهذا الفشل توجه نشاط التيجانية نحو الصحراء والسودان.

كان الشيخ التيجاني يقوم بزيارات مستمرة بين مدينته "عين ماضي" و"تلمسان" وفاس، فتخوفت السلطات العثمانية من أن تكون هناك مؤامرة سياسية تحاك ضدهم بالتنسيق مع السلطان العلوي سليمان، فقام الباي محمد الكبير بغارة على قرية "عين ماضي والأغواط، وكل الجنوب الصحراوي" حيث يتمركز نفوذ الطريقة التيجانية، وقد تمكن الباي من إرغام سكان المنطقة بالاعتراف بالسيادة التركية ودفع الغرامة المالية المستوجبة وكان ذلك سنة ١٧٨٧م[51].

في بايليك التيطري كان الصراع محتدمًا ما بين منطقتي وادي سوف والأغواط، فحاول باياتها تأديب القبائل المناهضة مثل أولاد نايل وقد قتل خلال الحملات العسكرية بايين هما عثمان(١٧٧٠) والباي صوفرا (١٧٧٣)، وقرفت هذه المناطق نوعا من التهدئة بمجيء الباي مصطفى الوزناجي (١٧٧١-١٧٩٤) والباي مصطفى بومزراق.[52] أما في بايليك الشرق مع سياسة الدهاء التي استعملها الباي محمد القلي (١٧٥٦-١٧٧٩) إلى غاية قدوم الباي أحمد باي (١٨٢٦-١٨٣٧) اللذين انتهجا سياسة التفرقة بين القبائل خاصة بين عائلتي بوعكاز وبن قانة لقيادة مشيخة العرب.[53]

وفي بايليك الشرق احتدم الصراع بين الأسرة والعائلات الكبرى في مولات السلطة المركزية بالجزائر وهذا في عهد الباي محمد القليوإلى غاية الباي الحاج أحمد (١٨٢٦-١٨٣٧) من خلال عائلتي بوعكاز وبن قانة. وفيهذه الفترة تكاثرت عديد الحملات العسكرية على منطقة الزيبان، أهمها حملة صالح باي (١٧٧١-١٧٩٢) الذي سيطر على توقرت، وحملة الباي أحمد المملوك، حكم هذا الباي مرتين الأولى سنة ١٨١٨ والثانية ما بين ١٨٢٠-١٨٢٢، الذي نهب منطقة وادي سوف سنة ١٨٢١. والباي أحمد القلي (١٧٥٦-١٧٧١).[54]

في إطار سياسة الحفاظ على المراقبة المستمرة لمناطق الجنوب، اعتمدت سلطات البايليك على نظام

قوة القبائل المخزنية، وهو ما نستشفه من محاربة القائد الأعلى للقوات الجزائرية زمنئذ الآغا يحيى[53]، الذي حارب أولاد نايل في جنوب بايايك التيطري وأولاد سلطان بالحضنة.[54] ومن خلال هذه المعطيات التاريخية يتضح أن الأتراك العثمانيين قد تباينت نظرتهم تجاه الصحراء الجزائرية من منطقة لأخرى، ولكنها في المقابل تنامت في الأسواق التجارية الصحراوية. كما يمكننا حصر أهم الأسواق المراقبة من طرف سلطات البايليك والتي كانت تتاجر فيها قبائل الجنوب، منها أسواق الجعافرة شرق سعيدة، وأولاد لكرود وأولاد شريف جنوب شرق تيارت، وأولاد عياد في ثنية الحد، وجندل ومشرية ما بين منطقتي الشلف والمدية وملیانة، الدوایر وأولاد مختار ما بين بوغار وسور الغزلان، وبوسعادة في الهضاب العليا بايليك قسنطينة وأولاد عبد النور، والحراكتة في تلاغمة، وأهمها سوق واد العثمانية في غرب قسنطينة.[55]

تمكنت أسواق المناطق التلية من الاستحواذ على نطاق واسع من النشاط التجاري مع الواحات الجنوبية مثل بسكرة وتقرت والأغواط وغرداية، والمناطق القريبة منها في المبادلات التالية: التمور، والجلود مقابل الصوف ومختلف أنواع الحبوب، ولم يتمكن الأتراك العثمانيون من بسط نفوذهم على المراكز التجارية الصحراوية البعيدة عنهم مثل عين صالح وغدامس. آما باقي المناطق فقد تم السيطرة عليها بشكل واسع اعتبارًا من أسواق مدينة الجزائر مرورا بسوق بسكرة وبوسعادة والبويرة، وميزاب إلى تونس عبر الأغواط وبوسعادة، وقسنطينة إلى الكاف التونسية. وشملت المبادلات التجارية البضائع المغاربية والأوروبية، مع اتساع دائرة المتاجرة بالعبيد السود.[56]

استطاع بعض ساكنة الصحراء الجزائرية من الاستقرار في المناطق الشمالية، مثل بنو ميزاب الذي كان لهم دور مميز في التجارة الصحراوية خلال العهد العثماني، وقد تمكن بعض العناصر منهم من الاستقرار بمدينة الجزائر قاعدة الحكم العثماني، وأشرفوا على الحمامات والقصابات والمطاحن. كما تميزت معظم الحرف في مدينة الجزائر بالاحتكار من طرف الجماعات البرانية. وقد عملت إدارة البايليك على تأسيس شبكة للتنظيمات الحرفية، وذلك قصد التحكم الجيّد في الجماعات الحرفية. وأقرت السلطات تعيين أمين عام لمراقبة عمليات البيع والشراء والتسويق وقمع حالات الغش السائدة في الأسواق. وقد ذكر مخطوط قانون الأسواق من بين هذه المجموعات التي كانت تؤطر الحرف بمدينة الجزائر: المزابيون، والبساكرة، ومن خلال استقراء مضامين مخطوط قانون الأسواق فإن البساكرة الحمالة احتلوا المرتبة الخامسة في مجال التنظيم الحرفي في مدينة الجزائر. والجدول التالي يوضح لنا توزيع البساكرة الحمالة في مدينة الجزائر ما بين القرنيين ١٧و١٨م:[57]

جدول توزيع البساكرة جغرافيا
في أحياء مدينة الجزائر خلال العهد العثماني

توزيع البساكرة جغرافيا في مدينة الجزائر	التوزيع الجغرافي للعمل
أهل بوشقرون	رحبة الزرع
أهل اللواء	فندق الزيت
أهل طولقة	زنقة جامع سفير
أهل سيدي عقبة	باب جديد
أولاد جلال	زنقة جامع كتشاوة
أهل سيدي خالد	زنقة جامع علي بتشين
أهل البرج	باب البحر

ولا تعكس تسمية البساكرة حقيقة وواقع تشكيلة الجماعة، فهي تضم عناصر عديدة ومختلفة، وفدت من مناطق الزيبان ووادي ريغ وسوف وتوقرت وطولقا.[58]

يعتبر البرانيون -حسب التعبير الغربي-من بين سكان مدينة الجزائر النشطين خلال العهد العثماني. وعلى الرغم من هيمنتهم على العديد من المهن غير المرغوب فيها من طرف البلديين "الحضريين" وتقديمهم للعديد من الخدمات الضرورية لأهل المدينة، فقد ظلوا يعتبرون أجانب بسبب انغلاقهم ضمن المجموعات التي ينتمون إليها وعدم اندماجهم بشكل عملي في حياة المجتمع من خلال الزواج وامتلاك العقارات وغير ذلك. فأغلبهم هاجروا بدون أهلهم وظلوا مرتبطين بمراكزهم ومناطقهم الأصلية. ينتمي هؤلاء إلى منطقة صحراوية، "تقع بالجنوب الجزائري بين الأغواط وواحة توات"، معروفة بظروفها المناخية الصعبة. وكانت الهجرة للعمل بالنسبة للذكور هي الوسيلة الوحيدة للكسب العائلي، وقد عاش هؤلاء في انغلاق على أنفسهم، لكنهم كانوا أكثر

الطوائف البرانية تعاونًا وتضامنًا فيما بينهم، إذ تتآزر الجماعة لأداء ديون من يتوفون، وتقدّم العون لمن يفلسون في تجارتهم، وتدفع الغرامة عمن يرتكبون محظورًا ما. كان النازحون من منطقة الميزاب بمدنها السبعة: غرداية وبني يسقن ومليكة وبريان والعاتق والقرارة وبونورة. وقد تميزت بفقرها وقلة إمكانيات العيش بها مما جعلها من المناطق الطاردة فكانت الهجرة اضطرارية وضرورية. وتذهب بعض الدراسات إلى أن الهجرة انتظمت منذ القرن الرابع عشر. وكان نزوح بني ميزاب أساسًا نحو التل والشمال.[59] وإذا كانت الأخبار شحيحة للغاية عن توافد بني ميزاب على مدينة الجزائر قبل الفترة التي نخصها بالدراسة، فمن المؤكد أن تواجدهم بمدينة الجزائر يعود إلى فترة سابقة لعام ١٥٤١[60].

ماهي الأسباب التي أدت إلى ضعف التواجد العسكري العثماني بالصحراء الجزائرية؟ يعود هذا حسب المصادر المتاحة لنا إلى ثلاث مؤشرات:[61]

١- ضعف القدرات والإمكانيات المادية والعسكرية للأتراك العثمانيين، بجيش محدود عدديًا ومحدودية الموارد المالية.

٢- كانت هذه الحملات مكلفة ماديًا ومعنويًا وتستمر شهورًا مما يكلف الخزينة أعباء ثقيلة.

٣- عدم وجود قواعد ومحلات عسكرية في معظم الواحات الصحراوية لاستتباب الأمن، باستثناء بعض النوبات بتعدد ضعيف نسبيا من جنود الإنكشارية، فكان لزامًا على السلط آنذاك الاعتماد[63] على القوة المخزنية لضمان ولاء هذه المناطق النائية.[64] يضاف إلى ردع بعض قبائل الجنوب بواسطة الحملات العسكرية الفصلية المتكررة لجلب الغنائم وفرض الضرائب على قبائلها.

٤- كانت عمليات جلب الضرائب من المناطق الصحراوية عملاً مهمًا لأيالة الجزائر وتتم تحت الضغط والإكراه، حيث كان البايات يعمدون إلى شن الحملات التأديبية لإرغام سكان الجنوب لدفع الضرائب المتوجبة عليهم مثل الغرامة أو المعونة. وتعتمد هذه الحملات العسكرية على قبائل المخزن.[65]

حفاظًا على سياسة التوازنات لم يشأ الأتراك العثمانيون خلق قوى مناوئة لهم في جنوب الجزائر يكون موازله لهم في المناطق التلية، وقد تم الاعتماد على حشد كبير من موظفي البايليك يعاضهم شيوخ القبائل المخزنية. كما وجدت هذه الاستراتيجية من لدن سلطات البايليك إلى انجاح سياسة أحمد القلي من اغتصاب مشيخة العرب من عائلة بوعكاز سنة ١٧٧٠ وتسليمها لعائلة بن قانة التي تساند البايليك على الرغم من أن هذه الأخيرة لم تكن قبائلها من الصحاري، وهو الأمر الذي أتاح لبن قانة التحكم في المناطق الصحراوية ومراقبة نشاطاتها باسم الباي، ووضع حد لتنامي قوة البدو في الصحراء الجزائرية.[66]

هل تمكنت السلطات العثمانية بالجزائر من انشاء علاقات سياسية دائمة ومستمرة مع قبائل الصحاري طوال فترة تواجدهم بالجزائر؟ الواقع يثبت عكس ذلك، لأنها لم تشمل سوى علاقاتها مع بعض القبائل المتاخمة لحدود الأطلس الصحراوي في الجهتين الغربية والشرقية وصولاً إلى مناطق تقورت وورقلة جنوبًا. فمن الناحية الشرقية تباعدت سياسة تونس عن الجزائر منذ انفصال إيالة تونس عن الجزائر، بتكوين باشويتين مستقلتين، وعلى الرغم من المحاولات العثمانية المتكررة في التوسط بين الطرفين وفض النزاع بينهما، وبضرورة توحيد القوى لمواجهة الأخطار الخارجية المحدقة بالدولتين، فقد لبى حكام البلدين في كثير من الأحيان هذه النداءات التي كان يبعث بها الباب العالي[67].

أما من الناحية الغربية فقد فشل العثمانيون في بسط نفوذهم على أراضي المغرب الأقصى، وتدخلوا في كثير من الأحيان في مد المساعدة للمنافسين والثائرين عل سلاطين المغرب، وانتهاج سياسة التفرقة واستغلال الظروف التي أعطت ثمارها وخاصةً أواخر الأسرة السعدية وأوائل دولة الأشراف العلويين[68]. ومما أثر في تدهور العلاقات الجزائرية المغربية، هي محاولة المغرب القيام بتحالف مع إسبانيا، كان الغرض منه تجهيز أسطول مغربي بأموال إسبانية لضرب مدينة الجزائر[69].

خَاتمَةٌ

كان للعوامل الخارجية أثر كبير في تدهور النظام الحربي للأيالة الجزائرية، وتتمثل أولاً في تعرض حدود الأيالة الشرقية والغربية للخطر، بعد أن بدأ تدخل المغاربة والتونسيين يأخذ شكل مساعدة مادية ومعنوية للزعماء المحليين الناقمين، باعتبارهم حلفاء تقليديين لبايات تونس وملوك المغرب، كالطريقة الدرقاوية ذات الميول المغربية وعشائر الحنانشة المتأثرة بالدعوة الشاذلية بالجنوب الغربي التونسي[70]. ونظرًا لأهمية هذا الدور وأبعاده في انعدام الأمن على المستوى الخارجي للإيالة الجزائرية، فإن دراسة تطور العلاقات بين الإيالة وجارتيها، يتيح لنا الفرصة للتعرف على ماهية الخطر الحدودي ودوره في عدم تفكير السلطات العثمانية طوال فترة تواجدهم بالاهتمام بالصحراء وبناء قواعد عسكرية بها[71].

في النهاية اتّسمت السياسة العثمانية بالتناقض. كانت من جهة في حاجة إلى استرضاء الأعيان والقبائل المخزنية للحفاظ على الأمن وضمان الجباية ومن جهة أخرى تضطّر، بسبب شحّ الموارد إلى استعمال القوة، مما كان يؤدّي أحيانًا إلى ثورة الرعايا خاصة في المناطق السهبية وحدود الصحراء. لقد تميز الوضع إذن بتوازن هش، طال رغم هشاشته، لكنه في نهاية الأمر أضعف النفوذ التركي وبدأ الناس يتكلّمون جهرا بقرب انقراض دولة الترك. وفي هذا المقام، يخبرنا ابن أبي الضياف: ...أن تنافر القلوب بين الرعي والرعية[72] كان العامل الرئيس في سقوط مدينة الجزائر، فلا عجب حينئذ أن ثورات القرن التاسع عشر قد عجلت بسقوط الجزائر سنة ١٨٣٠م.

الهَوامِشُ:

(1) حول هذا الموضوع يراجع: المكي، جلول، **مسألة الحدود بين الجزائر والمغرب من ٦٣١ إلى ١٢٦٣ هـ/ ١٢٣٤ -١٨٤٧م**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر، ١٤١٣هـ -١٩٩٣م. حنيفي هلايلي، **النظام الحربي للجزائر منذ مطلع القرن السابع عشر حتى سنة ١٨٣٠**، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة سيدي بلعباس ٢٠٠٤، ص ٢٥٦-٢٧٢.

(2) Tachrifat, Recueil de notices historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger, Pub. Par A. Devoulx, Alger, imp. du gouvernement, 1852.pp.70-71.

(3) مذكرات وليام شالر، **قنصل أمريكا في الجزائر**، (ترجمة: إسماعيل العربي)، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٢، ص ١١٦.

(4) حول الحملات: عبد الجليل، التميمي، "**الخليفة الدينية للصراع الإسباني-العثماني، على الإيالات المغاربية في القرن السادس عشر**"، المجلة التاريخية المغربي، العدد ٦، تونس، جويلية ١٩٧٦م، ص ١١٦-١٢٠. وأيضًا كتاب برودال:

Fernand, Braudel, la Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, 2ème édition, Armand colin, Paris 1966, T2, pp.384-427.

(*) تشير الأطاليس الجغرافية أن الصحراء الكبرى (الصحراء الجزائر جزء كبير منها)، هي أكبر فيافي العالم، وأكبر نطاق جاف إذ تقع معظم أجزائه بين دائرتي عرض ٢٠° و٣٥°. وتنقسم الصحراء الجزائرية بناء على معالم السطح وبنيته الخارجية إلى ثلاث مناطق متباينة هي: -الصحراء المنخفضة الشرقية. - الهضاب الصخرية الشمالية الوسطى والغربية. - مرتفعات الجنوب الشرقي الجبلي (الهقار والطاسيلي). يُنظر:

Gautie,E.F, Le Sahara, Payot, Paris 1928,p.9.

Ferau ,R. Le Sahara, géologie, ressources minérales, Payot, Paris, 1964, pp.91-141.

(5) فارس، محمد خير، **تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي**، دمشق: مطابع ألف باء، الأديب، ١٩٦٩م ص ١٢٩.

(6) Rozet et Carette, Algérie, 2éd, Bouslama, Tunisie, 1980, P.17.

(4) Louis, Rinn: «Le royaume d'Alger sous le dernier Dey» in **R.A** n°41, 1897, pp.135-137.

(7) Robin, «Note sur l'organisation militaire et administrative des Turcs dans la grande Kabylie», in **R.A** n°17, 1873 , p.134.

(8) Boutin, (Colonel), Reconnaissance des villes, forts et batteries d'Alger. Pub. par G.Esquer, Paris, Champion, 1927, p.41.

(9) محمد، خير فارس، المرجع السابق، ص ١٥٢.

(10) Tachrifat, pp.34

(11) حول القبائل المخزنية يُنظر: ناصر الدين، سعيدوني، **ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني**، ط١، بيروت: دار الغرب الإسلامي،٢٠٠٠، ص ٢٥٧-٢٧٢.

(12) أطلق تعبير المخزن على هذه التجمعات البشرية التي بفعل الانتساب والاستقرار والنشأة على أراضي البايليك اكتسبت كيانًا مستقلاً متمايزًا، وأصبحت لها تسميات جديدة كقبائل: الصحاري والغرازلة وهاشم والعبيد والعثمانة والدواير والزمالة والزواتنة وزمول والمكاحلية. للمزيد حول الموضوع يراجع:

-Emerit ,Marcel, «Les tribus privilégiées en Algérie dans la première moitié du 19e siècle», in, A.E.S.C, n°1, 1966, pp.44-58.

(13) سعيدوني، **ورقات جزائرية**، ص ١٥٣-١٥٥.

(14) Emerit,M, «un astronome Français à Alger en 1729», in **R.A**,n°84, 1940, p.250.

(15) Shaw (Dr), Voyage dans la régence d'Alger ou description géographique, physique, philologique, etc., et de cet état, Trad. de l'Anglais avec des nombreuses augmentations par J.Mac Carthy, Paris, Malin, 1830, p.129.

(16) Haedo, Histoire des Rois d'Alger, (Traduit et annotée :H-D,de Grammont),Alger, Adolphe Jourdan,1881, pp.271-272.

ويُنظر أيضًا:

Féraud, Charles, «Les Ben-Djellab, sultans de Tougourt, notes historiques sur la province de Constantine», In, *R.A,* n°23, 1879, pp. 269-270

(17) عسكري ومؤرخ إسباني (١٥٢٠-١٦٠٠). وقد ترك كتاب مهما عن شمال إفريقيا عامة والجزائر خاصة موسوم بـ وصف عام لإفريقيا طبع لأول مرة سنة ١٦٠٠ بغرناطة. مارمل كاربخال، **إفريقيا**، (ترجمة: محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر)، الرباط: مكتبة المعارف، ١٩٨٤، ج٢، ص٢٥١.

(18) Devoulx, (A), Tachrifat, recueil de notes sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger, Alger, Imp. Du gouvernement, 1852. p.33.

(19) ناصر الدين، سعيدوني، **دراسات (العهد العثماني)**، المرجع السابق، ص ٢٤٢-٢٤٥.

(20) Tachrifat, pp.35-36.

(21) حول موضوع الصراع الجزائري المغربي حول مسائل الحدود والنفوذ قبيل فترة الاحتلال الفرنسي، يُنظر: عمار بن خروف، **العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي**، ط٢، تيزي وزو: دار الأمر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٦.ص336.

(22) Boyer (Pierre), «Contribution à l'étude de la politique religieuse des Turcs dans la régence d'Alger, 16e-19 siècle», in R.O.M.M, n°1, 1966, p.37.

(23) اختلف المؤرخون في تحديد كلمة الدرقاوية، ففريق يقول بأن أصل الكلمة يعود إلى (درقة) وهي بلدة قريبة من فاس، بينما يذهب فريق آخر إلى أن اشتقاق الكلمة يعني (خرقة) كناية للرجال الذين اعتادوا لبس البرانس المرقعة، أما الفريق الثالث فيعتبر فعل درقي إلى نبأ، باعتبار أن الدرقاويين كانوا يستعملون أسلوب التقية في وجه النظام التركي بالجزائر. للمزيد من التفاصيل راجع:

Deneveu,X, les Khouans, ordre religieux chez les musulmans de l'Algérie, 3ème éd, Jourdan, Alger 1913, p.128.

(24) أصله يعود إلى قبيلة بربرية هي كسانة القاطنة على ضفاف وادي العبد بضواحي غريس (معسكر) زاول دراسته بالقيطنة ثم بزاوية يوبريح في المغرب حيث اتصل بالشيخ الدرقاوي مولاي عبد الله محمد. وعند عودته إلى الجزائر، عين مقدما للطريقة في الإقليم الغربي للأيالة. انظر: أبو العباس أحمد، الناصري، **الاستقصا، لأخبار دول المغرب الأقصى** (تحقيق وتعليق: جعفر ومحمد الناصري)، الدار البيضاء: دار الكتب، ١٩٥٤-١٩٥٦، ج٨، ص١٠٩.

(25) الزياتي، محمد بن يوسف، **دليل الحيران، وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران** (تحقيق وتقديم: الشيخ المهدي البوعبدلي، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٧٩م.)، ص ٢٠٨.

(26) العربي، الغالي، **الثورات الشعبية في الجزائر أثناء العهد التركي (١٧٩٢-١٨٣٠م)**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق، ١٩٨٥م. ص ١٧٣.

(27) ينبع هذا الوادي من إقليم النجود، ويصب في نهر الشلف.

(28) قرية فرطاسة، تقع جنوب مدينة غليزان وسماها الفرنسيون بـوادي الأبطال.

(29) مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص ٧٣.

(30) العربي، الغالي، المرجع السابق، ص ١٧٥.

(31) Delpech, Adrian, «Résumé historique sur le soulèvement des Derkaoua de la province d'Oran, in, R.A n°78, 1937, p.44 .

(32) Ibidem.

(33) أبو القاسم، الزياتي، **الترجمان: المغرب في دول المشرق والمغرب**، (نشر وتحقيق: هوداس)، باريس ١٨٨٦م، ص ١٠١.

(34) Rotalin, Charles, Histoire d'Alger et la piraterie des Turcs dans la méditerranée, Paris, 1841, T2, p.591.

(35) عبد الرحمن، الجيلالي، المرجع السابق، ج٣، ص ٢٩١.

(36) مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص ٩١.

(37) الزياتي، المصدر السابق، ص ٢٢٣.

(38) Esterazy, Walsin, la domination, op.cit., pp.210-212.

(39) مولاي، بلحميسي: "**الثورة على الأتراك في الجزائر شواهد مستقاة من وثائق إسبانية لم تنشر**"، المجلة الثقافية، العدد ٤٦، الجزائر، نوفمبر-ديسمبر، ١٩٧٨، ص ٤٦.

(40) نفسه، ص ٤٥.

(41) نفسه.

(42) تنسب القادرية إلى الشيخ محي الدين عبد القادر الجيلاني المولود في مدينة جيلان (فارس) سنة ١٠٧٩م والمتوفى في بغداد سنة ١١٦٦م، وقد دخلت هذه الطريقة بلاد المغرب العربي في القرن الخامس عشر الميلادي. وقد قامت هذه الطريقة على العلم والفقه والدعوة الدينية، واشتهرت بوطنيتها.

(43) Boyer, Pierre, «Historique des Beni Amer d'Oranie des origines au sénatus consulte», in, R.O.M.M, n°24, 1977, pp. 53-54.

(81) يعتبر كتاب "الكناش" ن المسمى: ظواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض الشيخ التيجاني، المصدر الأساسي لمبادئ الطريقة التيجانية، وتوجد النسخة الأصلية من المخطوط في مركز أرشيف ما وراء البحار بـ أكس أون بروفانس بفرنسا. راجع:

Arnaud,L, «histoire de l'ouali sidi Ahmed eTidjini, extrait de Konach», in, R.A,n°5, 1861, pp.468-474.

(44) العربي، الغالي، المرجع السابق، ص ١٨٧.

(45) Emerit, l'Algérie..., op.cit., P.85.

(46) انظر: تفاصيل رحلة محمد الكبير وحملته في الجنوب في كتاب بن هطال، المصدر السابق، ص ٥١-٧٦.

(47) Rinn, Louis, Marabouts et Khouan, étude sur l'Islam en Algérie, Alger, A.Jourdan, 1884, p.199.

(48) Ibid, p.202.

(49) تعرضت معسكر إلى مهاجمة الشيخ محمد التيجاني، الذي تمكن من محاصرة معسكر والاستيلاء على ضاحيتها بابا علي بمعاضدة عشائر الحشم عام ١٨٢٧م.

(50) الزهار، المصدر السابق، ص ١٦٠.

(51) ابن هطال، التلمساني، أحمد ابن، **رحلة محمد الكبير إلى الجنوب الجزائري الصحراوي**، (تحقيق: محمد بن عبد الكريم)، القاهرة: عالم الكتب، ١٩٦٩م، ص ٧٥-٧٦.

(52) Federmann (Henri) et Aucapitaine (le baron Henri), «Notices sur l'histoire et l'administration du beylik de Titeri», in, R.A, n°9, 1865,p. 285-300.

(53) Robin, note...132-140.

(54) للمزيد يُراجع: محمد الصالح العنتري، **فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة**، مراجعة وتقديم وتعليق: يحيى بوعزيز، طبعة خاصة، الجزائر، عالم المعرفة، ٢٠٠٩، ص٣٧، يُراجع أيضًا: تايخ بايات قسنطينة لمؤلف مجهول، تحقيق: محتار حساني، الجزائر، مطبعة دحلب، ١٩٩٩، ٧٣ص.

Ferraud, pp.34-84 ٨٠-٨٨.

(53) الرجل الوحيد من حاشية الداي الذي عمل جاهدا للتصدي للحصار منذ بدايته هو قائد الجيش يحي آغا الذي سارع إلى: "تحصين المدينة، وذهب إلى سيدي فرج وبنى هناك حصنًا من اثني عشر مدفعًا، وجعل العسة من العسكر الجديد في كل حصن وعين لهم المؤونة. والخطأ الاستراتيجي الذي وقع فيه الداي حسين هو عزل وقتل الآغا يحي بعد اتهامه بالتآمر ضده وكان يتولى القيادة العامة للجيش منذ اثني عشرة سنة مما أكسبه خبرة واسعة وتجربة في كل ما يتعلق بفنون الحرب والتنظيم العسكري، كما كان يحظى بالطاعة والاحترام لدى الجنود، ويتمتع بشعبية واسعة. يراجع: **مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار**، (تحقيق: أحمد توفيق المدني)، ط٢، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٠م. ص ١٣٦.

(54) Aucapitaine, Federman, op.cit , p.299.

(55) Carette, capitaine, Recherches sur la géographie et le commerce de l'Algérie méridional, Paris, Imprimerie royal, 1844, TI, pp.192-193.

(56) Ibid. p.131.

(57) Shuval, Tal, La ville d'Alger vers la fin du XVIIe siècle, éd, CNRS, Paris, 1997, pp.239-242.

مخطوط قانون أسواق مدينة الجزائر، المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم ١٣٧٨. وهو يحتوي على ٥٨ ورقة. يُنظر: متولي السوق عبد الله بن محمد الشويهد، **قانون أسواق مدينة الجزائر(١١٠٧-١١١٧هـ/١٦٩٥-١٧٠٥م)**، تحقيق وتقديم وتعليق: ناصر الدين سعيدوني، طبعة خاصة، الجزائر: البصائر الجديدة للنشر والتوزيع،٢٠١٢. ص٢٢٠.

(58) ناصر الدين سعيدوني، **ورقات جزائري**ة، ط١، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٠، ص ٥٣٠-٥٣١.

(59) Holsinger.D.ch, Migration, Commerce and community the Mizabis in Nineteenth centry, Evanston, 1979, p.164.

(60) أرشيف ما وراء البحار بأس أون بروفانس علبة ٨٠/٥٥٧، ملف يخص الجماعات البرانية تقرير موجه إلى المجلس الإداري.

Touati (H), «les corporations de métiers à Alger à l'époque ottomane», in, R.H.M. n° 47-48, Tunis, Décembre, 1987, p.278.

(61) حول التجنيد العسكري والقدرات العسكرية للجزائر خلال العهد العثماني، يُراجع: حنيفي، هلايلي، **بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني**، ط١، الجزائر: دار الهدى،٢٠٠٧، ص ٢٧-٣٦.

(63) Walsin, Esterhazy, Cap, De la domination Turque dans l'ancienne régence d'Alger, Paris, Ch. Gosselin, T.XXII, 1840, p.263.

(64) سعيدوني، ورقات...، المرجع السابق، ص٢٥٧-٢٦٢.

(65) Urbain, Ismaël," Notice sur l'ancienne province du Titteri", In, Tableau de le situation des établissements Français dans l'Algérie, 1843, pp.397-444.

(66) Féraud, op.cit., p.227.

(67) صلاح، العقاد، **المغرب في بداية العصور الحديثة**، مصر: دار المعارف، ١٩٦٢-١٩٦٣م، ص٥٦.

(68) Cour, August, l'établissement des dynasties des chérifs du Maroc et leurs rivalités avec les Turcs de la régences d'Alger, 1509-1830, éd Leroux, Paris 1904, pp.244-245.

(69) حول سياسة الأتراك اتجاه المغرب والعلاقات السياسية بين المغرب وإيالة الجزائر في العهد العثماني، راجع الدراسات القيمة: جلول، المكي، **مسألة الحدود بين الجزائر والمغرب من ٦٣١ إلى ١٢٦٣ هـ/١٢٣٤-١٨٤٧م**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

(70) Cour, August, op.cit, pp.230-236.

(71) عبد الجليل، التميمي، **"التشكل الإداري والجغراسياسي للأيالات العثمانية بالجزائر وتونس وطرابلس الغرب (١٥٠٧-١٥٨٨م)**". في كتاب تحية تقدير للأستاذ خليل الساحلي أوغلو (جمع وتقديم: د. عبد الجليل التميمي)، زغوان: منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، ج٢، أكتوبر-نوفمبر، ١٩٩٧م، ص٤٥٤.

(72) ابن أبي الضياف، أحمد، **اتحاف أهل الزمان في أخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، ط٢، الجزائر: الدار التونسية للنشر والشركة الوطنية للنشر والتوزيع ١٩٧١م، ج٢، ص ١٦٨.